تحقيق دلالة القرآن الكريم
على أشراط الساعة الكبرى

(دراسة موضوعية مقارنة)

د. خالد بن نواف بن أحمد الشوحة

الأستاذ المشارك بقسم الدراسات الإسلامية

كلية العلوم الإدارية والإنسانية - جامعة الجوف

ملخص بحث

تحقيق دلالة القرآن الكريم على أشراط الساعة الكبرى

دراسة موضوعية مقارنة

ظهرت في الآونة الأخيرة مجموعة من الأفكار التي تهدف إلى تقليص مادة الاستدلال الديني، وتحويل النصوص الغيبية إلى نظريات مادية، وكان من ضمنها إنكار أشراط الساعة الكبرى، أو تجريدها من دلالة القرآن الكريم أو السنة النبوية عليها، ولذلك جاءت هذه الدراسة لإثبات دلالة القرآن الكريم على أشراط الساعة الكبرى عموما، ومن ثم بيان وتحقيق ما استدل به المفسرون من أي القرآن الكريم عليها، وقد جعلته في تمهيد وستة مباحث، درست فيها من الأشراط: خروج الدجال، ونزول عيسى بن مريم -عليه السلام-، وخروج يأجوج ومأجوج، والدخان، وطلوع الشمس من مغربها، والدابة، مبينا مواقف المفسرين، ومحللا أقوالهم، في دراسة تحليلية نقدية مقارنة، ثم ذكرت في الخاتمة مجمل ما توصلت إليه من نتائج. والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم.

Proving the Major Signs of the Day of Judgment Through Qur'anic Deduction - A Comparative Objective Study

Prepared by:
Khaled N. Al-Shwhah, PhD
Associate professor, Department Islamic Studies
Al-Jouf University, Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

In recent years, many trends have appeared with an aim of deprecating religious deduction, and rendering the texts specific to the knowledge of the unseen to mere concrete, practical theories. One of these trends is the denial of the occurrence of the Day of Judgment’s signs, or the denial of its deduction from the Qur'an or the Sunnah. Therefore, this study’s main objective is to prove the major signs of the Day of Judgment through Qur'anic deduction, and then to demonstrate and investigate what was quoted by the exegetes of Qur'anic verses about those signs.

The study is divided into an introduction and six sections. Some of the signs that were investigated are the emergence of the Antichrist, the descent of Jesus son of Mary (peace be upon him), the emergence of Jajuj and Majuj, the appearance of Smoke, the rising of the sun from the west, and appearance of the Beast. Furthermore, it elaborates on the positions of Qur'an exegetes and studies their theories analytically using a comparative critical method. The conclusion states the findings of the study.

I ask God to make my work purely for Him.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام التامان الأكملان على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن قضية أشراط الساعة إحدى حلقات سلسلة الغيب التي تفارقت فيها مذاهب الملل، وتنوعت في طرحها أقوال النحل، فنفاها بعضهم بالكلية، وأثبتها غيرهم. ثم اختلف المثبتون في طرق إثباتها، وكان من مصادر هذا الإثبات ما ورد في كتاب الله -تعالى- من آيات دلت عليها، فكانت موطن بحث المعتنين بكتاب الله -تعالى-، وقد أحببت أن أفرد هذا الموضوع بدراسة تفسيرية متخصصة، لأبين تحقق دلالة القرآن الكريم عليها، إثباتاً أو نفياً.

ومما شجعني على الدراسة ما أصبحنا نراه ليل نهار وما نسمعه من أولئك القوم الذين ينفون كل ما جاء به ديننا الحنيف من الغيبيات، التي يظنون أنها عوائق تحول دون تصديق الآخر وإيمانه بهذه الدين، وقد تنوعت جهودهم في هدم حقائق هذا الدين، فقوم ينكرون كل ما جاءت به النصوص الشرعية مما وراء المادة أو المشاهدة -على حد قولهم-، ومنهم الذين يقللون حجم مساحة الاستدلال الديني، فيجردون الآيات الكريمة من مدلولاتها، وآخرون علموا أنهم لن يقبل لهم مذهب، إذا اقتفوا أثر الفريقين السابقين، فلجأوا إلى إثبات الأسماء وتحريف المسميات وتأويلها بالظواهر الطبيعية المادية البحتة، فهذا ينكر الملائكة، وذاك ينفي حقيقة الجن، وثالث يفسر المعجزات بالحقائق المادية، ورابع لا يؤمن بأشراط

الساعة، وهكذا دواليك، في خطة مؤسسية محكمة، حاكت خيوطها أنامل من اجتمعوا على المكر لهذا الدين. ولسنا نلوم أولئك الذين تدعوهم عقيدتهم أن يكيدوا لديننا، ولكن اللوم كل اللوم على أولئك الذين استحوذت على نفوسهم انهزامية مقيتة نشأت نتيجة ما رأوه عند الآخر من تقدم علمي وحضاري ومدني، أبهر عقولهم، وسيطر على نفوسهم، حتى أصبحوا لا يقتنعون إلا بما جاء من الآخر، أو ما كان مشابهاً لما عنده على أقل تقدير.

وقد جعلت هذه الدراسة في تمهيد وستة مباحث وخاتمة، لممت فيها شمل ما تناثر من جمانات هذه القضية الكبّار، سائلاً المولى –جل وتقدس– أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به عباده المسلمين، والله الهادي إلى سواء السبيل.

منهج البحث:

اعتمدت في بحثي هذا على المنهج الوصفي المقارن، حيث قمت بجمع البيانات الكافية والدقيقة حول قضية أشراط الساعة من آي القرآن الكريم، ومن كلام المفسرين الذين عرضوا لتفسيرها، ثم استخدمت المنهج التحليلي المقارن للترجيح بين الأقوال وبيان مدى انطباقها على مضمون قضية البحث، علما أن مجموع هذه المناهج يسمى في الدراسات القرآنية بالمنهج الموضوعي المقارن.

محددات الدراسة:

سأتناول في هذه الدراسة – بإذن الله – تعالى– أشراط الساعة الكبرى فقط، مبيناً ومحققاً دلالة القرآن الكريم عليها إثباتاً ونفياً. وهذا أوان الشروع في المقصود، فعلى الله –تعالى– أتوكل، وبه أستعين، وأقول:

التمهيد

مما يحسن في هذا المقام أن نمهد للموضوع بذكر تعريف أشراط الساعة وأقسامها، وأختصر ذلك بما يأتي:

المطلب الأول

تعريف أشراط الساعة

أولاً: الأشراط هي العلامات، واحدها (شَرَط)، وبه سميت شرط السلطان؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات يعرفون بها، مثل اختلاف لباسهم وبعض الأدوات التي معهم. وأشراط الشيء: أوائله. ومنه أيضاً: الاشتراط الذي يشترطه الناس بعضهم على بعض، فالشرط علامة على المشروط [(1)].

والمراد بالأشراط: العلامات التي يعقبها قيام الساعة [(2)].

(1) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر(٢/ ٤٦٠) مادة: (ش ر ط)، ، بيروت، المكتبة العلمية، ط١٣٩٩هـ. ابن منظور: لسان العرب: (٧/ ٣٢٩-٣٣٠)، مادة: (ش ر ط)، بيروت، دار صادر، ط١.

(2) ابن حجر: فتح الباري (١٣/ ٧٩)، بيروت، دار المعرفة، ط١٣٧٩هـ.

ثانياً: الساعة: تطلق في الأصل على معنيين:

أولهما: جزء من أربعة وعشرين جزءا، هي مجموع الليل والنهار.

ثانيهما: جزء قليل من الليل أو النهار، تقول: جلست عندك ساعة من النهار، أي: وقتاً قليلاً منه [١]. وقال الزجاج: (معنى الساعة في كل القرآن: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم، فلقلة الوقت الذي تقوم فيه الساعة سماها ساعة)[٢].

وقال الألوسي: (وتطلق في عرف الشرع على يوم موت الخلق، وعلى يوم قيام الناس لرب العالمين...، وفسروها بالقيامة؛ ووجه إطلاقها عليه؛ لظهور أنه قدر يسير في نفسه، وإما لمجيئه بغتة، أو لأنه يدهش من يأتيهم، فيقل عندهم)[٣]. قال -تعالى-: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ [محمد: ١٨]. قال الشوكاني: (أي: أماراتها وعلاماتها)[٤]. وقال ابن كثير: (أي: أمارات اقترابها)[٥].

---

(١) الألوسي: روح المعاني (٢٦/ ٧٩)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١٤١٥هـ.

(٢) نقله عنه ابن منظور: لسان العرب (٧/ ٣٢٩) مادة: (س و ع). وانظر: الأصفهاني: المفردات (ص٢٤٨)، تحقيق: صفوان عدنان، دمشق، دار الكتب الشامية، ط ١٤١٢هـ.

(٣) الألوسي: روح المعاني (٢٩/ ٧٩).

(٤) الشوكاني: فتح القدير (٥/ ٤٣). دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط ١، ١٤١٤هـ.

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٣١-٣٣٢)، تحقيق: سامي سلامة، الرياض، دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ.

المطلب الثاني

أقسام أشراط الساعة

تنوعت تقسيمات المفسرين لأشراط الساعة، تبعاً لتنوع الاعتبار، وهي على النحو الآتي:

أولاً: باعتبار العِظم والقدر، وهي قسمان:

الأول: أشراط صغرى: وهي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة متطاولة، وتكون في أصلها معتادة الوقوع، مثل: ظهور الجهل وشرب الخمر ونحوها.

الثاني: أشراط كبرى: وهي التي تقارب قيام الساعة، وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع، مثل: ظهور الدجال والدابة ونحو ذلك [(1)].

ثانياً: باعتبار الظهور، وهي ثلاثة أقسام:

الأول: ظهرت وانقضت، مثل بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم –.

الثاني: ظهرت وما زالت مستمرة الظهور، مثل: اندراس العلم، وقلة الحياء والدين.

الثالث: لم تظهر بعد، مثل: ظهور الدجال والدابة.

---

(١) القرطبي: التذكرة (ص٦٢٤). تحقيق الصادق محمد إبراهيم، الرياض، دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٥هـ. ابن حجر: فتح الباري (١٣/ ٤٨٥).

المبحث الأول

خروج المسيح الدجال في آخر الزمان

اختلف المفسرون قديماً وحديثاً في المسيح الدجال، هل ورد ذكره في القرآن الكريم، أم لم يرد، ومع اتفاقهم جميعاً على أنه لم يصرح باسمه في القرآن الكريم، إلا أنهم اختلفوا في الآيات التي أشارت إليه تلميحاً، وقد تتبعت كلام المفسرين والعلماء في هذه المسألة، فوجدتهم يرجعون الإشارة إلى المسيح الدجال إلى آيات عدة، سأتناولها آية آية، مبيناً تحقق دلالتها على المسيح الدجال شرطاً من أشراط الساعة الكبرى.

أولاً: أنه هو المقصود بالناس في قوله -تعالى-: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧]. وقد ذكر ذلك ابن أبي حاتم في تفسيره[(١)]، والدميري[(٢)]، وقال القرطبي: (والمعنى: إن تعظموا عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم - وقالوا: إن الدجال سيخرج عن قريب، فيرد الملك إلينا، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله، فذلك كبر لا يبلغونه، فنزلت الآية فيهم، قاله أبو العالية وغيره)[(٣)]. والاستعاذة تكون هنا من الدجال.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، (١٠/ ٣٢٦٨) الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، صيدا، المكتبة العصرية، د. ت.

(٢) حياة الحيوان الكبرى، الدميري: محمد بن موسى، (٢/ ٤٥٢)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ.

(٣) القرطبي، (١٥/ ٣٢٥) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب =

قلت: أما أن الدجال من الناس فهذا صحيح لا غبار عليه، فهو ليس جناً ولا مَلَكاً – حاشاهم -. وعلى هذا الاعتبار يكون داخلاً في مفهوم الآية، نعم، ولا يخرج معنى الآية من أن يكون خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، ومن ضمنهم الدجال، وإذا قلنا بهذا القول فإنه يلزمنا أن ندخل الدجال في كل آية دل لفظها على الناس أو الإنسان، وعليه فلا داعي لتخصيص هذه الآية دون مثيلاتها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن لفظ الناس وإن شمل الدجال، إلا أنه لا دلالة في الآية على خروجه في آخر الزمان، حال كونه شرطا من أشراط الساعة.

وعلى كل حال، فالذي أراه في معنى هذه الآية: أن الله -تعالى- جاء بهذه المفاضلة؛ ليقرر قدرته -تعالى- على ما ذكر في سباق الآيات ولحاقها، وأن الذي خلق السماوات والأرض لا يعجزه إرسال الرسل، ولا إحياء الموتى، ومن ثم لا يعجزه حسابهم بالجنة أو النار. والاستعاذة تكون من كل شيء يستعاذ منه، وليس من الدجال فقط.

قال الطبري: (يقول -تعالى- ذكره: لابتداع السماوات والأرض وإنشاؤها من غير شيء أعظم أيها الناس عندكم إن كنتم مستعظمي خلق الناس وإنشاءهم من غير شيء من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن خلق جميع ذلك هين على الله)[1].

=
المصرية – القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤

(١) الطبري، جامع البيان (٢١/ ٤٠٥) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

وقال القاسمي: (وفي الآية وجهان من التأويل، أحدهما: أنها سيقت لبيان قدرته -تعالى- على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي يقدر على هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت السيارات والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبراري وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾[الأحقاف: ٣٣]، ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٧٧-٨١]

الوجه الثاني: ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين، أي: إن يشأ يهلككم إذا خالفتم أمره، ويخلف قوما خيرا منكم، كقوله -تعالى-: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾[محمد من الآية ٣٨]، وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ

قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾[النساء: ١٣٣])[١]

وبهذا نخلص إلى أنه لا دلالة في هذه الآية على المسيح الدجال، فليست من آيات أشراط الساعة.

ثانياً: قوله -تعالى- في سورة الأعراف: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[الأعراف: ١٧٥].

ثالثاً: أن الله -تعالى- أشار إليه بقوله: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾[الكهف: ٨]. وهذا بناء على قول النبي -صلى الله عليه وسلم -: (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال)[٢]، والسبب في أن من قرأ هذه الآيات يعصمه الله -تعالى- من الدجال ـ على ما يقوله أصحاب هذا الرأي:- أن الدجال من الأشياء التي على الأرض، والتي يجعله الله -تعالى- صعيدا جرزاً)[٣].

قلت: وهذا استدلال بعيد غريب، وإنما جاءت الآيات مخبرة عن الوقت الذي يجعل الله -تعالى- فيه الأرض صعيداً جرزاً تهيئة لما سيأتي بعدها من حوادث جسيمة وأخطار عظيمة، يقول الطبري: (لنختبر عبادنا

(١) القاسمي، محاسن التأويل، (٦/ ٣١٠)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي. د. ط.

(٣) الزركشي، البرهان (٢/ ١٤٠)، تحقيق: محمد أبي الفضل، نشره: دار إحياء الكتب العربية، وصورته دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٧٦هـ.

أيهم أترك لها وأتبع لأمرنا ونهينا وأعمل فيها بطاعتنا)[(١)]. وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف: ٧ – ٨]: (من هذه الزينة صعيدا جرزا، يعني مثل أرض بيضاء لا نبات فيها، بعد أن كانت خضراء معشبة، في إزالة بهجته، وإماطة حسنه، وإبطال ما به كان زينة، من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار)[(٢)].

وقال أبو السعود: (والمعنى لا تحزنْ بما عاينْتَ من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب، فإنا قد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياءِ زينةً لها؛ لنختبرَ أعمالَهم، فنجازِيهم بحسبها، وإنا لمُفْنون جميعَ ذلك عن قريب، ومجازون لهم بحسب أعمالهم)[(٣)].

رابعاً: ما ذكره الزركشي من أنه وقعت الإشارة إليه تعريضاً به في قصة السامري، في قوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾ [طه: ٩٧][(٤)].

قلت: هذه الآية وردت في السامري، ووعْد الله -تعالى- بالموعد الذي يحق الله -تعالى- فيه الحق ويبطل الباطل هو وعد عام شامل لكل الخلائق دون تخصيص لا للدجال ولا لغيره، على أن سياق الآية يحتم كونها في السامري، وإن اشترك الدجال مع السامري في الكفر بالله -تعالى-، فإن غير الدجال كثيرون ممن ناصبوا الله -تعالى- العداء والطغيان والشرك.

(١) الطبري: جامع البيان (١٧/ ٥٩٨).

(٢) الزمخشري، الكشاف (٢/ ٧٠٤)، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١٤٠٧هـ.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود (٥/ ٢٠٥)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ط.

(٤) الزركشي، (٢/ ١٤٠).

قال النسفي: (أي: لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة، بعدما عاقبك بذاك في الدنيا)(١).

خامساً: أنه تمت الإشارة إليه بالإشارة إلى الذي يخرج في زمنه، وتلتحم قصته بقصته، وهو عيسى -عليه السلام-، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤ -٨]، فإن وعده -تعالى- بالعَود هنا هو وعد بخروج عيسى -عليه السلام-، وهو الزمان نفسه الذي يخرج فيه الدجال(٢).

والذي يظهر لي أن قوله -تعالى-: (وإن عدتم عدنا) تهديد لبني إسرائيل إن عادوا إلى الكفر والمعصية أن يعود الله -تعالى- عليهم بالعذاب والنكال، كما كان من شأنهم في المرتين الأوليين، وأن الآية الكريمة لم تحدد زماناً خاصاً لهذا العَود، بل هي تهديد مفتوح مبني على عودهم في الكفر

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، (٢/ ٣٨١)، تحقيق: محي الدين ديب مستو، بيروت، دار الكلم الطيب، ط ١، ١٤١٩هـ.
(٢) الزركشي، (٢/ ١٤٠)

والإفساد، وليس بالضرورة أن يكون في الزمان الذي يخرج فيه المسيح الدجال. على أني أرى في الآية تعريضاً واضحاً بكل من يدأب دأب بني إسرائيل في هذا الفعل، فإن الله -تعالى- وإن تاب على قوم بعد توبتهم، إلا أنه لا يعجزه أن يعاقبهم مرات ومرات إذا رجعوا إلى طريقتهم الأولى.

سادساً: وهو قريب من القول السابق: أنه وقعت الإشارة إليه بالإشارة إلى خروج عيسى -عليه السلام- في قوله -تعالى-: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩]، وقوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[الزخرف: ٦١]

قلت: نعم إن هذه الآيات - كما قدمت - دالة على خروج عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان، إلا أنها لا تحتوي على إشارة من قريب ولا من بعيد على خروج المسيح الدجال، وإن قلنا بدلالتها على خروج الدجال بحكم اتحاد الزمن، لزمنا أن نجعلها شاملة لكل الحوادث التي تحصل في زمن عيسى -عليه السلام-، كخروج يأجوج ومأجوج، وظهور المهدي وغيرها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن اشتراك الدجال مع عيسى -عليه السلام- في لقب المسيح، لا يجعل من الآية دليلاً على خروج الدجال، على أن ثمة خلافاً بين العلماء في سبب تسمية الدجال مسيحاً.

قال ابن حجر: (وصح أنه الذي يقتل الدجال، فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر؛ ولكونه يلقب بالمسيح كعيسى، لكن الدجال مسيح

الضلالة وعيسى مسيح الهدى)[1].

سابعاً: أن خروجه إحدى الآيات التي إذا ظهرت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، وذلك قوله -تعالى-: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ﴾[2].

قلت: وهذا القول هو أقرب الأقوال إلى الصواب، وفيه الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره عن أبي هريرة أيضاً رفعه: "ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل. طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض"[3]، فيكون هذا الحديث من قبيل تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية.

١) ابن حجر، فتح الباري، (١٣/ ٩١).

٢) ابن حجر، فتح الباري، (١٣/ ٩١).

٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان برقم (٢٢٧).

المبحث الثاني

نزول عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان

ومن أشراط الساعة الكبرى خروج عيسى -عليه السلام- في زمن الدجال، وقد اختلف المفسرون في وجود دلالة القرآن الكريم على هذا الشرط، ومن ذهب إلى القول بوجود دلالات من القرآن على ذلك استدل بما يأتي:

الدليل الأول: قوله -تعالى-: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[النساء: ١٥٩]

بعد أن نفى الله -تعالى- مقالة اليهود بأنهم قتلوا عيسى -عليه السلام- بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، أقول: بعد أن نفى مقالتهم هذه بين أنه لم يمت، وأن بعضاً من أهل الكتاب سيؤمنون به قبل موته -عليه السلام- وقد اختلفت كلمة المفسرين في هذه الآية؛ وذلك نتيجة لاختلافهم في عود الضميرين في قوله -تعالى-: (به) وقوله -تعالى-: (موته)، على النحو الآتي[1]:

القول الأول: أن الضميرين يعودان على عيسى -عليه السلام-، ويكون المعنى على هذا التقدير: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى.

(١) ذكر جميع هذه الأقوال الآلوسي: روح المعاني (٦/ ١٩).

القول الثاني: أن الضمير الأول يعود على عيسى -عليه السلام-، والضمير الثاني يرجع لليهود والنصارى، وتقدير الآية على هذا القول: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت الكتابي: اليهودي أو النصراني.

القول الثالث: أن الضمير الأول لله -تعالى-.

القول الرابع: أن الضمير الأول لمحمد -عليه الصلاة والسلام-

القول الخامس: أن الضمير الأول عائد إلى عيسى -عليه السلام- والثاني عائد إلى الرفع[1]

قلت: أما القول الأول فهو قول جماهير المفسرين. قال ابن جرير: (وأولى الأقوال بالصحة قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى)[2]. وقال ابن كثير: (ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الأية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة بذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبيه، وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت على الأحاديث المتواترة)[3].

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير (٤/ ٣٠٩)، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ط ١، ١٤٢٠هـ.

(٢) الطبري: جامع البيان (٩/ ٣٨٦).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن (٢/ ٤٥٤).

والذي يظهر أن هذا القول هو أرجح الأقوال؛ وذلك لما يأتي:

١ـ دلالة السياق في أن الكلام في الآيات الكريمات هو على عين قضية نزول عيسى في آخر الزمان، بعد أن نفى الله -تعالى- قتله وصلبه، واختلاف الأمم في هذه المسألة، وهذا ما أشار إليه ابن كثير فيما نقلته عنه آنفاً.

٢ـ انسجام الضمائر بعضها مع بعض، قال الشنقيطي: (وإيضاح هذا أن الله -تعالى- قال: وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، ثم قال -تعالى-: وما قتلوه، أي: عيسى، وما صلبوه أي: عيسى، ولكن شبه لهم أي: عيسى، وإن الذين اختلفوا فيه أي: عيسى، لفي شك منه أي: عيسى، ما لهم به من علم أي: عيسى، وما قتلوه يقينا أي: عيسى، بل رفعه الله، أي: عيسى، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به أي: عيسى، قبل موته أي: عيسى، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا أي: يكون هو - أي: عيسى - عليهم شهيدا)[1].

٣ـ أن هذا القول يتوافق مع ما في السنة المتواترة من نزول عيسى - عليه السلام- في آخر الزمان، وأنه الآن حي يرزق، لا كما قاله اليهود ومن نحى نحوهم بأنه قتل أو صلب.

٤ـ أن هذا القول (واضح لا إشكال فيه، ولا يحتاج إلى تأويل ولا تخصيص، بخلاف القول الآخر، فهو مشكل لا يكاد يصدق إلا مع

(١) الشنقيطي، أضواء البيان (٧/ ١٢٩)، بيروت، دار الفكر، ط ١٤١٥هـ.

تخصيص، والتأويلات التي يروونها فيه عن ابن عباس وغيره ظاهرة البعد؛ لأنه على القول بأن الضمير في قوله: قبل موته راجع إلى عيسى، فلا إشكال ولا خفاء، ولا حاجة إلى تأويل، ولا إلى تخصيص. وأما على القول بأنه راجع إلى الكتابي فإنه مشكل جدا بالنسبة لكل من فاجأه الموت من أهل الكتاب، كالذي يسقط من عال إلى أسفل، والذي يقطع رأسه بالسيف وهو غافل، والذي يموت في نومه ونحو ذلك، فلا يصدق هذا العموم المذكور في الآية على هذا النوع من أهل الكتاب، إلا إذا ادعى إخراجهم منه بمخصص. ولا سبيل إلى تخصيص عمومات القرآن إلا بدليل يجب الرجوع إليه من المخصصات المتصلة أو المنفصلة)[(١)].

الدليل الثاني: قوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[الزخرف: ٦١]

هذه الآية جاءت في معرض الكلام على عيسى -عليه السلام-، وقد اختلف المفسرون في المراد من الضمير في قوله: (وإنه) على أقوال:

الأول: أنه عائد على عيسى -عليه السلام-.

الثاني: أنه عائد على القرآن الكريم.

الثالث: عائد على النبي محمد- صلى الله عليه وسلم -.

الرابع: أنه ضمير الشأن.

قلت: أما القول الأول فهو الذي عليه جماهير المفسرين، وهو المشهور

(١) الشنقيطي، أضواء البيان (٧/ ١٣١).

عن ابن عباس - رضي الله عنهما- حيث قال: (هو خروج عيسى بن مريم -عليه السلام- قبل يوم القيامة)[١].

وقد رجحه الطبري[٢] والزمخشري[٣]، وأبو حيان[٤]، وابن كثير[٥]،وأبو السعود[٦] والألوسي[٧] وغيرهم.

قال أبو السعود: (وإنه لعلم للساعة أي: إنه بنزوله شرط من أشراطها)[٨]. وتعبير المفسرين بالنزول لا يخالف تعبير ابن عباس بالخروج؛ فالنزول هو كيفية خروج عيسى -عليه السلام- على اعتبار ما نعتقده فيه أن الله - تعالى- رفعه. على أن بعض المفسرين عمم أمر الضمير ولم يقتصر على النزول بل تعداه إلى الطريقة التي خلق بها عيسى -عليه السلام-، وإلى إحيائه للموتى وإلى المعجزات التي كانت تظهر على يده، قال الألوسي: أي: إنه بنزوله شرط من أشراطها، أو بحدوثه بغير أب، أو بإحيائه الموتى،

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٢٩) برقم (٢٩٢١)، وقال محققه أحمد شاكر: (وإسناده صحيح).

والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٥٤) وقال: (صحيح الإسناد، ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي.

(٢) الطبري، جامع البيان (٢٠/ ٩٥)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٤/ ٢٦١)

(٤) أبو حيان، البحر المحيط (٩/ ٣٨٦)، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، ط١٤٢٠هـ.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن (٧/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٦) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٨/ ٥٢-٥٣).

(٧) الألوسي، روح المعاني (٢٥/ ١٤٧).

(٨) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٢٢).

دليل على صحة البعث الذي هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة) [1].

والذي أراه أن النزول هو أوفق هذه المعاني والعائدات لأنه هو الذي يقارن الساعة ويدل على وقوعها بما يحقق معنى الشرط والعلامة، وليست تلك المعجزات التي ابتعد زمانها عن زمن وقوع الساعة، أضف إلى ذلك اشتراك جميع الأنبياء عليهم السلام في إجراء المعجزات على أيديهم.

وقد صرحت الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة على نزول عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان وأن هذا النزول من أشراطها الكبرى، ومنه ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه قال: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة، خيرا من الدنيا وما فيها"[2]. وقال ابن كثير: (تواترت الأحاديث عن رسول الله أنه أخبر بنزول عيسى -عليه السلام- قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً) [3].

وقال الغماري: (وقد ثبت القول بنزول عيسى -عليه السلام-

(١) الألوسي، روح المعاني (١٣/ ٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في ك/ أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى عليه السلام، (٦/ ٤٩٠-٤٩١) مع الفتح.

ومسلم في باب: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (٢/ ١٨٩-١٩٠) مع شرح النووي.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٢٣).

عن غير واحد من الصحابة والتابعين وأتباعهم، والأئمة والعلماء من سائر المذاهب على مر الزمان، إلى وقتنا هذا،...، تواتر هذا تواتراً لا شك فيه)[(١)].

وقال أبو الحسن الأشعري: (الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله، لا يردون من ذلك شيئاً... ويصدقون بخروج الدجال وأن عيسى يقتله)[(٢)].

وممن رجح القول الثاني وهو أن الضمير عائد إلى القرآن الكريم ابن عاشور، حيث يرى أن هذا ثناء على القرآن الكريم استمر متصلا من أول السورة آخذا بعضه بحجز بعض متخللا بالمعترضات والمستطردات، ومتخلصا إلى هذا الثناء الأخير بأن القرآن أعلم الناس بوقوع الساعة. ويفسره ما تقدم من قوله: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ [الزخرف: ٤٣] ويبينه قوله بعده ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف:٤٣]، على أن ورود مثل هذا الضمير في القرآن مرادا به القرآن كثير معلوم من غير معاد فضلا على وجود معاده.

ومعنى تحقيق أن القرآن علم للساعة: أنه جاء بالدين الخاتم للشرائع فلم يبق بعد مجيء القرآن إلا انتظار انتهاء العالم. وهذا معنى ما روي من قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن

---

(١) الغماري: عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام (١٢).

(٢) أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين (ص ٢٩٥)، تحقيق: هلموت ريتر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، د. ت.

بين السبابة والوسطى مشيرا إليهما"، والمشابهة في عدم الفصل بينهما)[1].

ورد رحمه قول الجمهور، فقال: (وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن الضمير لعيسى، وتأولوه بأن نزول عيسى علامة الساعة، أي: سبب علم بالساعة، أي: بقربها، وهو تأويل بعيد، فإن تقدير مضاف وهو نزول لا دليل عليه، ويناكده إظهار اسم عيسى في قوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ ﴾ إلخ. ويجوز عندي أن يكون ضمير {إنه} ضمير شأن، أي: أن الأمر المهم لعلم الناس بوقوع الساعة)[2].

وأقول: في كلام ابن عاشور نظرا كبيراً، وذلك من وجوه:

الأول: أن اللغة لا تمنع من تقدير مضافات، والقرآن جار على أسلوب العرب في التخاطب. قال الشنقيطي: (غاية ما في ذلك أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير: وإنه لذو علم للساعة، أي: وإنه لصاحب إعلام الناس بقرب مجيئها، لكونه علامة لذلك، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه- كثير في القرآن وفي كلام العرب،...وهذا أحد الوجهين اللذين وجه بهما علماء العربية النعت بالمصدر، كقولك: زيد كرم وعمرو عدل، أي: ذو كرم وذو عدل، كما قال -تعالى-: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[الطلاق: ٢]) [3].

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨٠). والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: تفسير سورة النازعات، برقم (٤٦٥٢).

(٢) المصدر السابق

(٣) الشنقيطي، أضواء البيان (٧/ ١٢٩) بتصرف.

الثاني: أن يكون هذا من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب، قال الشنقيطي: (وإطلاق علم الساعة على نفس عيسى-جار على أمرين، كلاهما أسلوب عربي معروف. أحدهما: أن نزول عيسى المذكور لما كان علامة لقربها، كانت تلك العلامة سببا لعلم قربها، فأطلق في الآية المسبب وأريد السبب. وإطلاق المسبب وإرادة السبب - أسلوب عربي معروف في القرآن وفي كلام العرب. ومن أمثلته في القرآن قوله -تعالى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر: ١٣]. فالرزق مسبب عن المطر، والمطر سببه، فأطلق المسبب الذي هو الرزق وأريد سببه الذي هو المطر، للملابسة القوية التي بين السبب والمسبب) [١].

ومعلوم أن البلاغيين ومن وافقهم يزعمون أن مثل ذلك من نوع ما يسمونه المجاز المرسل [٢]، وأن الملابسة بين السبب والمسبب من علاقات المجاز المرسل عندهم).

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن كثيرا من المفسرين استدلوا بقراءة أخرى للآية وهي (لعَلَمٌ) بفتح العين واللام، قال القرطبي: (أي: علامة وأمارة على قيام الساعة، وهذه قراءة مروية عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما

(١) أضواء البيان (٧/ ١٢٨-١٢٩) بتصرف.

(٢) استعمال الكلمة في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني (١/ ٢٦٠)، والبلاغة الواضحة: علي الجارم (١/ ١٣٩)

من أئمة التفسير)[1].

قلت: هذه القراءة مروية عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي مالك الغفاري وزيد بن علي وقتادة ومجاهد والضحاك وغيرهم، وثمة قراءة أخرى أشار إليها الراغب، وهي (للعلم) معرفاً بفتحتين، وقال: (وهي قراءة شاذة قرأ بها الأعمش)[2]. وأقول: الصحيح في هاتين القراءتين أنهما قراءتان شاذتان، وليستا من السبع المتواترات ولا من العشر، ولذلك لا يجوز اعتمادهما خاصة في مثل هذا المقام العقدي الغيبي، وإنما يعتبران من قبيل التفسير والاجتهاد لا من قبيل القراءة.

١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٠٥)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم إطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤ هـ.

٢) الراغب، مفردات القرآن (ص ٥٨١). انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، شهاب الدين الدمياطي (١/ ٤٩٦). وتفسير الطبري (٢١/ ٦٣٢)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٥).

المبحث الثالث

يأجوج ومأجوج

وردت قصة يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم في موضعين اثنين، أولهما: سورة الكهف، والثاني: سورة الأنبياء. وبالنظر فيما ورد عنهم وجدت أن موضوع الآيات ينقسم إلى ثلاثة أزمنة:

الزمن الأول: قصتهم مع القوم الذين وصفهم القرآن بأنهم لا يكادون يفقهون قولاً، ثم بناء السد عليهم من قبل ذي القرنين. وهذا من قوله -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾[الكهف: ٩٣ - ٩٦].

الزمن الثاني: بقاؤهم في السد وانحباسهم عن العالم، ويدل عليه قوله -تعالى-: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾[الكهف: ٩٧].

الزمن الثالث: خروجهم من هذا السد، ويدل عليه قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾[الكهف: ٩٨-٩٩]. ويدل عليه أيضا قوله -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الأنبياء: ٩٦].

أما الزمن الأول والزمن الثاني فليسا من أشراط الساعة الكبرى؛ لعدم تحقق انطباق شروط مسمى أشراط الساعة الكبرى عليهما. مع أنهما من الأدلة القوية على صحة رسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فهي أمور غيبية لا تعلم إلا بالوحي. وأما الزمن الثالث فهو الذي يدور عليه رحى البحث، وهو الذي يتحقق فيه مسمى الشرط، قال الطبري: (وقوله: (فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء) يقول: فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتًا لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء هذا الردم لهم. (جعله دكاء)، يقول: سواه بالأرض، فألزقه بها، من قولهم: ناقة دكاء: مستوية الظهر لا سنام لها. وإنما معنى الكلام: جعله مدكوكا، فقيل: دكاء)[1].

وقال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩] أي: الناس يومئذ أي: يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩] قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه – إن شاء الله –تعالى– عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩] قال ابن زيد في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا

(١) جامع البيان، الطبري، (١٨،١١٨)

﴿بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾[(١)].

قال ابن عادل: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: القيامة. وقيل: وقت خروجهم)[(٢)]. وقال الشوكاني: (فإذا جاء وعد ربي، أي: أجل ربي أن يخرجوا منه، وقيل: هو مصدر بمعنى المفعول، وهو يوم القيامة)[(٣)].

وقال الألوسي: (والمراد من وقت ذلك يوم القيامة، وقيل: وقت خروج يأجوج ومأجوج. وتعقب بأنه لا يساعده النظم الكريم. والمراد بمجيئه: ما ينتظم مجيئه ومجيء مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى -عليه السلام- ونحو ذلك لا دنو وقوعه فقط، كما قال الزمخشري وغيره، فإن بعض الأمور التي ستحكى تقع بعد مجيئه حتما) [(٤)].

وبهذا نحصر أقوال المفسرين في قوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ في الآتي:

الأول: أنه وقت خروج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان.

الثاني: أنه يوم القيامة.

قلت: والظاهر أنه لا منافرة بين هذين القولين، وذلك لأن قيام

(١) ابن كثير، (٥/ ١٩٩).

(٢) ابن عادل، اللباب في علوم الك/ (١٢/ ٥٦٨)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ.

(٣) فتح القدير، الشوكاني(٣/ ٣٧٠).

(٤) الألوسي، روح المعاني (٨/ ٣٦٣).

الساعة تابع لحدوث أشراطها الكبرى ومتوقف عليه، فإذا ظهرت العلامات قامت القيامة؛ والمعنى على هذا الجمع بين الأقوال: أنه إذا أراد الله -تعالى- خروج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان جعل السد دكاء. أو نقول: إذا أراد الله -تعالى- أن يقيم القيامة أظهر أشراطها الكبرى. وبهذا يكون دك السد مقدمة من المقدمات التي تسبق يوم القيامة.

ومع هذا الجمع إلا أني أرى أن تفسيرها بوقت خروج يأجوج ومأجوج أنسب وأوفق بالمقام؛ لأنه هو الحدث المترتب مباشرة على اندكاك السد.

الثالث: أنه تحقق بخروج بعض الأمم. كالتتار والمغول مثلاً، يقول سيد قطب: (وبعد، فمن يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون! كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن، وفي بعض الأثر الصحيح. والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٧-١٠١]، وهذا النص لا يحدد زمانا. ووعد الله بمعنى وعده بدك السد، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار، وانساحوا في الأرض، ودمروا الممالك تدميرا.

وفي موضع آخر في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وهذا النص كذلك لا يحدد زمانا معينا لخروج يأجوج ومأجوج فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم -

فجاء في القرآن: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر. فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون، يراها البشر طويلة مديدة، وهي عند الله ومضة قصيرة.

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح في الفترة ما بين: (اقتربت الساعة) ويومنا هذا. وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج.

وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثوري عن عروة، عن زينب بنت أبي سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أمها حبيبة، عن زينب بنت جحش - زوج النبي صلى الله عليه وسلم - قالت: استيقظ الرسول - صلى الله عليه وسلم - من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول: «ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وحلق (بإصبعيه السبابة والإبهام).قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا كثر الخبيث".

وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن. وقد وقعت غارات التتار بعدها، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو في خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين. وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلم ذلك عند الله. وكل ما نقوله ترجيح لا يقين) ا. هـ[1].

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٩٤). القاهرة، دار الشروق، د. ط.

قلت: والذي يظهر لي أن الآيات الكريمة دلت على ما يأتي:

ـ أن القوم الذين كانوا يعيشون بين السدين، وكان من صفتهم أنهم كانوا لا يفقهون قولاً، طلبوا من ذي القرنين أن يبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً.

ـ أن يأجوج ومأجوج كانوا مفسدين في ذلك الزمان.

ـ أن ذا القرنين بنى عليهم سداً من زبر الحديد والقطر.

ـ أن يأجوج ومأجوج لم يقدروا على أن يظهروا على السد، ولا على نقبه.

ـ أن ذلك العجز من يأجوج ومأجوج سيبقى إلى أن يأتي وعد الله، فإذا جاء وعد الله جعل السد دكاء، وأن هذا كائن لا محالة.

ـ أن يأجوج ومأجوج سينسلون من حدب إذا فتح الردم الذي بناه ذو القرنين عليهم.

ـ والصحيح - والله أعلم – أن الآيات وحدها لم تحدد ذلك الزمن بأي: من المحددات اللهم إلا أنه بعد مجيء وعد الله –تعالى–، ووعد الله –تعالى– من الممكن أن يتحقق في أي زمن من الأزمان.

هذا هو ما أفادته الآيات إلى قوله –تعالى–: ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف، ٩٨]. ولو وقف الأمر عند هذه الأدلة لكان للقوم الذين قضوا بخروج يأجوج ومأجوج قبل هذا الزمان الذي نحن فيه، أقول: لكان لهم منزع قوي ووجهة نظر وجيهة. ولكن الأمر أبعد من هذا وأوسع؛ فإن قضية يأجوج ومأجوج ليست متوقفة على هذه الأدلة فحسب، بل إن نصوصاً أخرى من السنة الصحيحة شرحت أمرهم، وبينت بالضبط زمان

خروجهم، وكان شيء منها اقتباساً صريحاً من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لنص القرآن الكريم؛ ليكون ذلك من باب تفسير الكريم بالسنة النبوية الصحيحة، وكما هو معلوم أن كثيراً من الآيات الكريمة متوقف فهمها وبيانها على ما في السنة الصحيحة، وأرى أن أمر يأجوج ومأجوج من الأمور التي تعاضدت فيها نصوص القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية الصحيحة، وأن السنة قد صرحت بما ألمحت إليه الآيات الكريمة. وإليك تفصيل هذا:

أولاً: قوله –تعالى–: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الكهف٩٩ ،١٠٠]، فإنه لا مانع أن يكون المراد بالبعض هنا يأجوج ومأجوج عندما يفتح السد عليهم يموجون موجاً من كثرتهم وتدافعهم. ثم يتبع الله –تعالى– ذلك بنفخ الصور، بناء على أن خروج يأجوج ومأجوج وما يحصل معهم يعتبر من علامات الساعة الكبرى، التي تعقبها الساعة مباشرة.

ثانياً: صرحت الأحاديث الصحيحة بما لا مجال للشك فيه أن خروج يأجوج ومأجوج يكون في زمن نزول عيسى –عليه السلام–، وقد ورد ذلك في حديث النواس بن سمعان، حيث قال: (ذكر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه

دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط [شديد جعودة الشعر] (١) عينه طافئة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشأم والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا» قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض. قال: «أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم، قال: «لا اقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض. قال: «كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا وأسبغه ضروعا وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل [ذكور النخل، جماعة النحل]، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين [ثوبين مصبوغين بورس ثم زعفران]، واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان [حبات من

(١) جميع هذه الشرح للكلمات الغريبة من شرح النووي على مسلم (٩/ ٣٢٧)، وقوله: طافئة: بيان عن حالته وأنه أعور

الفضة...والمراد يتحدر منه الماء] كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء. ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف [دود يكون في أنوف الإبل] في رقابهم فيصبحون فرسى [قتلى] كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم [دسمهم] ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر [الطين الصلب] ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردى بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام [الفخذ] من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم حت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم،

ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة)[1].

ثالثاً: أن في حديث النواس بن سمعان دليلًا استئناسيا، وفيه اقتباس الرسول -صلى الله عليه وسلم- من آية الأنبياء، حيث قال: (فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية....)، فقوله: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٦] تفسير لآية الأنبياء.

وأما ما ذكره بعض أهل العلم جزما وبعضهم تخمينا من أنهم التتار أو المغول أو الصين ونحوهم فهو قول غير صحيح، ودلالة عدم صحته ما يأتي:

أولاً: في حديث النواس بن سمعان أنهم يشربون بحيرة طبرية، وها هي البحيرة ما زالت قائمة وماؤها فيها لم يشرب.

وأنبه إلى أنه يجب حمل الشرب هنا على حقيقته ولا يجوز تأويله أبدا ولا استبعاده، ومن صدق بخروج قوم بهذه الأعداد لم يصعب عليه أن يصدق بكمية الماء التي يشربونها.

ثانياً: وفي الحديث أيضا أن خروجهم يكون في زمن عيسى -عليه السلام-، وعيسى -عليه السلام- لم ينزل إلى الآن.

ثالثاً: وفي الأحاديث أيضاً أنهم يموتون كلهم، وهاهم أهل الصين

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه، برقم (٥٢٢٨).

والمغول ما زالوا يزيدون ويتكاثرون.

هذا وغيره من الردود الكثيرة الدالة على أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا حتى الآن، وأنهم سيخرجون في زمن عيسى -عليه السلام-، وأنهم شرط من أشراط الساعة الكبرى كما أخبر بذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

وعليه، وجمعاً بين ما قاله الله -تعالى- عنهم في كتابه الكريم وبين ما فسره وبينه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سنته الصحيحة، يكون ذلك من باب تفسير القرآن بالسنة الصحيحة، والشأن في ذلك كبيان السنة لأحكام الصلاة والصيام والحج والطهارة وسائر ما أشير إليه في القرآن الكريم مجرد إشارة وفسرته السنة.

المبحث الرابع: الدخان

ومن أشراط الساعة الكبرى التي وقع الخلاف بين المفسرين في دلالة القرآن الكريم عليها الدخان، وبالنظر إلى كلام المفسرين والباحثين في أشراط الساعة، لم أجد خلافهم يتعدى أكثر من موطن واحد من القرآن الكريم في الدلالة على هذا الشرط، وهو قوله -تعالى-: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الدخان: ١٠-١٣].

وقبل أن أشرع في تحقيق دلالة القرآن الكريم على هذا الشرط أبين أن أهل السنة والجماعة لا يختلفون إطلاقاً في الإيمان بشرط من أشراط الساعة الكبرى سيقع، هو الدخان، وذلك لكثرة الأحاديث التي تثبت هذا الشرط، ومنها: أن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي -صلى الله عليه وسلم- علينا ونحن نتذاكر فقال «ما تذاكرون؟» قالوا نذكر الساعة. قال «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات» فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم -صلى الله عليه وسلم- ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم[1]

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الآيات التي =

وعن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال أو الدابة أو خاصة أحدكم أو أمر العامة»[1] فأنا لا أبحث الآن في إثبات هذه القضية، بل في إثبات تحقق دلالة القرآن الكريم عليها.

وقد اختلف المفسرون -رحمهم الله- في الدخان المذكور في هذه الآية، على النحو الآتي:

القول الأول: أن الدخان المذكور في هذه الآية وقع، وذلك لما دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على قومه أن يعاقبهم بسنين كسني يوسف -عليه السلام-، فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، وصار الواحد منهم يرى ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان. وهذا هو قول الصحابي عبد الله بن مسعود، ورجحه شيخ المفسرين الطبري وغيره[2].

وقد استدلوا على ذلك بما يأتي:

أولاً: ما جاء في حديث مسروق بن الأجدع – رحمه الله – قال: « كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن قاصا يقص ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ

=
تكون قبل الساعة، برقم (٥١٦٢).

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية أحاديث الدجال، برقم (٥٢٤٠).

(٢) الطبري، جامع البيان (٢١/ ١٣).

المؤمنين منه كهيئة الزكام " فقال عبد الله، وجلس وهو غضبان: "يا أيها الناس اتقوا الله، من علم منكم شيئا فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله -عز وجل- قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [٨٦، ص]، إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما رأى من الناس إدبارا قال لهم: "اللهم سبع كسبع يوسف"، قال: فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوعِ، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان)[(١)].

ثانياً: وبما روي عن ابن مسعود أيضاً أنه قال: « خمس قد مضين: اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان »(٢).

القول الثاني: أن هذا الدخان لم يأت بعد، بل هو شرط من أشراط الساعة الكبرى، وهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، ورجحه ابن كثير[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: ك/ التفسير (٦/ ٤٠)، ومسلم في صحيحه: ك/ صفات المنافقات: (٤/ ٢١٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: ك/ التفسير، (٦/ ٤١)، ومسلم في صحيحه: ك/ صفات المنافقين (٤/ ٢١٥٧). وما ذكره فالروم إشارة إلى قوله تعالى: «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون»[الروم:١-٣]. والبطشة إشارة إلى قوله تعالى: «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» [الدخان:١٦]، والقمر إشارة إلى قوله تعالى: « اقتربت الساعة وانشق القمر » [القمر:١].

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن (٧/ ٢٤٧).

القول الثالث: أنهما دخانان، ظهر الأول في زمنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والثاني منتظر لم يظهر بعد[١].

وقال الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله-: " وبعد. فإنه غير منكر أن يكون أحل بالكفار الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم، ويكون محلا فيما يستأنف بعد بآخرين دخانا على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندنا كذلك؛ لأن الأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد تظاهرت بأن ذلك كائن، فإنه قد كان ما روى عنه عبد الله بن مسعود، فكلا الخبرين اللذين رويا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صحيح)[٢]. وقال النووي -رحمه الله تعالى-: (ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار)[٣].

والذي يظهر لي أن القول الثاني هو الأرجح؛ للأمور الآتية:

أولا: أن الله -تعالى- أخبر عن مصدر هذا الدخان وهو السماء، وإنما كان الذي رأوه من قبل أنفسهم.

ثانياً: أن الله -تعالى- وصف الدخان بأنه مبين، وهذا يعني أنه ظاهر لكل الناس لا لبعضهم فقط.

ثالثاً: أن هذا الدخان يأتي على جميع الناس لا بعضهم، وهذا هو

(١) القرطبي: التذكرة (٢/ ٣٢٧).

(٢) الطبري، جامع البيان (٢٢/ ١٩).

(٣) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم (١٨/ ٢٧)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

المتبادر والظاهر، وأما على القول الأول فإننا نجعل (الناس) من العام المخصوص، ومعلوم في القواعد الأصولية أننا لا نعتبر اللفظ من العام المخصوص إلا بدليل ظاهر، يدخل ما خصصناه به، ويخرجه ما عداه من اللفظ.

رابعاً: أن ابن مسعود يقول في روايته: (وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان)، ففي هذه الرواية تصريح بأن ما يرونه إنما هو شبيه الدخان، وهذا ينفي أصلاً وجود الدخان، ومعنى رواية ابن مسعود: أنهم حل بهم القحط، فجاعوا، واشتد جوعهم، حتى أصبحوا يتخيلون شيئاً يشبه الدخان، وهو قوله: (كهيئة الدخان)؛ وبناء على هذا الكلام جعل كثير من المفسرين ممن وافقوا ابن مسعود ـرضي الله تعالى عنهـ من قبيل المجاز، والأولى أن يحمل الكلام على الحقيقة، ولا نلجأ إلى المجاز إلا عند تعذر الأخذ بالحقيقة[1].

خامساً: أن الحالة التي حصلت معهم ليست خاصة بهم، بل هي حالة يثبت عالم الطب وعالم وظائف الجسم أنها تحصل مع كثير من الناس إذا اختل نظامهم تركوا الطعام مدة من الزمن، أو إذا اختل نظامهم الغذائي.

سادساً: أما قوله -تعالى-: ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ ﴾ [الدخان: ١٢].

(١) هذا على رأي من يقبل وقوع المجاز في القرآن الكريم.

فالمراد منه أحد أمرين: أولهما: ادعاء الإيمان زمن التكلم، وهذا كذب وافتراء منهم؛ فلو كانوا مؤمنين ما وقع العذاب عليه أساساً. وثانيهما: وعد منهم بأنهم سيؤمنون إن كشف عنهم العذاب، فلا دلالة في هذه الآية على كون هذا العذاب في الدنيا أو في الآخرة، فهم كاذبون في ذلك، سواء أقالوه في الدنيا أم في الآخرة، فهم يقولون مثل هذا الكلام في كل موقف يشعرون فيه بأنهم هالكون معذبون، ثم يعودون لما كانوا عليه من الكفر والضلال، ومصداقه قوله -تعالى-: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

وبهذا التحقيق يترجح لدي أن القول الثاني هو أقرب الأقوال إلى الصواب، وبناء عليه أستطيع أن أضيف هذا الشرط في سلك أشراط الساعة الكبرى التي دل القرآن الكريم عليها.

المبحث الخامس
طلوع الشمس من مغربها

ومن أشراط الساعة الكبرى التي عرض لها المفسرون، طلوع الشمس من مغربها، وكان ذلك عند قوله -تعالى-: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقد اختلفوا -رحمهم الله تعالى- في المراد من قوله -تعالى-: (بعض آيات ربك)، وقد تحصل من كلامهم أربعة أقوال:

القول الأول: أن المراد بالبعض هنا هو عموم أشراط الساعة. قال الزمخشري: (وبعض الآيات: أشراط الساعة، كطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك)[(١)].وقال البيضاوي: (بعض آيات ربك، يعني: أشراط الساعة)[(٢)].

القول الثاني: أن بعض الآيات هنا هو خصوص طلوع الشمس من مغربها، قال الطبري بعد أن ذكر أقوال المفسرين: (وأولى الأقوال بالصواب في ذلك، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله، أنه قال: (ذلك حين تطلع

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/ ٨٢).

(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ٤٦٩)، بيروت، دار الفكر، د. ط.

الشمس من مغربها)[١]

وقال الشوكاني: (فإذا ثبت هذا التفسير النبوي من وجه صحيح لا قادح فيه، فهو واجب التقديم، محتم الأخذ به)[٢]

وقال الألوسي: (والحق أن المراد بهذا البعض الذي لا ينفع الإيمان عنده: طلوع الشمس من مغربها. فقد روى الشيخان: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها، ثم قرأ الآية)، بل قد روي هذا التعيين عنه -صلى الله عليه وسلم- في غير ما خبر صحيح، وإلى ذلك ذهب جلة المفسرين وما يروى من الأخبار التي ظاهرها المنافاة لذلك غير مناف له عند التحقيق كما لا يخفى على المتأمل)[٣]

القول الثالث: إتيان الله -تعالى- لفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة[٤]

القول الرابع: أنها عموم الآيات [٥]، وممن نصر هذا القول وأيده

---

(١) الطبري، جامع البيان (٢/ ٢٦٦). هكذا ذكره المؤلف ولعله يريد الحديث أخرجه البخاري في ك/ الرقاق (١١/ ٣٥٢) مع الفتح، ومسلم في ك/ الإيمان، باب: الذي لا يقبل الله فيه الإيمان (٢/ ١٩٤) مع شرح النووي. بلفظ: (لاتقوم الساعة...).

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/ ٢٠٧).

(٣) الألوسي، روح المعاني (٤/ ٣٠٥). والحديث، أخرجه البخاري في ك/ الرقاق (١١/ ٣٥٢) مع الفتح

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤٥).

(٥) سواء أكانت أشراطا أم لم تكن؛ لأن الأشراط جزء من آيات الله تعالى الباهرة، وهذا هو =

صاحب المنار حيث قال: (والبعض من هذه الآيات قد يطلع عليه الأفراد عند الغرغرة قبيل خروج الروح وهي القيامة الصغرى، ولا تراها الأمم كلها إلا قبيل قيام القيامة الكبرى، فإن لها آيات كآيات الموت بعضها ظني وبعضها قطعي، يترتب عليه حصول الإيمان القهري)[1] وإليك ما ذكره صاحب المنار حتى نتبين مراده في هذه القضية:

قال –رحمه الله–: (وفي الآية من الإيجاز البليغ ما ترى، فإن الفصل بين كلمة (نفسا) الدالة على الشمول لكونها نكرة في سياق النفي، وبين صفتها هي جملة (لم تكن آمنت) إلخ بالفاعل وهو (إيمانها) وعطف جملة (أو كسبت في إيمانها خيرا) عليها قد أغنى عن التصريح بما بسطنا به المعنى آنفا.

وقد روي في أحاديث منها الصحيح السند والضعيف الذي لا يحتج به وحده، بأن هذه الآية التي أبهمت وأضيفت إلى الرب –تعالى– لتعظيم شأنها وتهويله، هي طلوع الشمس من مغربها قبيل تلك القارعة الصاخة التي ترج الأرض رجا، وتبس الجبال بساً. فتكون هباء منبثا، وإذا الشمس كورت، وإذا الكواكب انتثرت، وبطل هذا النظام الشمسي وقد كان طلوع الشمس من مغربها بعيدا عن المألوف المعقول، ولا سيما معقول من كانوا يقولون بما تقول فلاسفة اليونان في الأفلاك والعقول، وأما علماء الهيئة الفلكية في هذا العصر فلا يتعذر على عقولهم أن تتصور حادثا تتحول فيه

=

الفق بين هذا القول والقول الأول.

(١) رشيد رضا، تفسير المنار (٨/ ١٨٥)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٩٠م.

حركة الأرض اليومية فيكون الشرق غربا والغرب شرقا، ولا ندري أيستلزم ذلك تغييرا آخر في النظام الشمسي أم لا؟ وقد ورد في المأثور ما يؤيد هذا التوجيه، فقد أخرج البخاري في تاريخه، وأبو الشيخ في العظمة، وابن عساكر عن كعب قال: إذا أراد الله أن تطلع الشمس من مغربها أدارها بالقطب (أي: المحور) فجعل مشرقها مغربها ومغربها مشرقها. اهـ. وهذا من أحسن العلم المعقول الذي روي عن كعب والله على كل شيء قدير.

وأقوى الأحاديث الواردة في طلوع الشمس من مغربها ما رواه البخاري في كتاب الرقاق "عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) اهـ. ومثله في التفسير وغيره من صحيحه وأورده في كتاب الفتن مطولا فيه ذكر آيات أخرى لقيام الساعة. وأخرجه أيضا أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه وغيرهم. وأخرج أحمد، والترمذي، وغيرهما عن أبي هريرة أيضا رفعه " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل. طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض" وهو مشكل مخالف للأحاديث الأخرى الواردة في نزول المسيح الدجال وإيمان الناس به، والمشكلات في الأحاديث الواردة في أشراط الساعة كثيرة، أهم أسبابها فيما صحت أسانيده واضطربت المتون وتعارضت أو أشكلت من وجوه أخرى، أن هذه الأحاديث رويت بالمعنى ولم يكن كل الرواة يفهم المراد منها لأنها في أمور غيبية، فاختلف التعبير

باختلاف الأفهام، على أنهم اختلفوا في ترتيب هذه الآيات) [1]

الرأي الراجح:

والذي يظهر لي ـوالله أعلمـ أن المراد من الآية هو عموم ما اجتمع فيه شرطان اثنان، أولهما: أن يكون آية من آيات الله -تعالى-، وثانيهما: أن يترتب على ظهوره عدم قبول الإيمان، فكل ما اجتمع فيه هذان الشرطان صح أن يكون مراداً من مرادات الآية الكريمة.

وتطبيقاً على ما أصلته آنفاً، أقول: إن الشرطين المتقدمين متحققان في طلوع الشمس من مغربها، ولذلك تكون هذه الآية القرآنية دالة على هذا الشرط من أشراط الساعة الكبرى، وهذا هو ما قررته الأحاديث الشريفة التي صرحت بدخول هذا الشرط في مسمى الآية الكريمة.

ومن هذه الأحاديث، ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت، فرآها الناس، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)[2]

وما أخرجه أحمد عن أبي هريرة أيضا رفعه: "ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل. طلوع الشمس من مغربها،

(١) رشيد رضا، تفسير المنار (٨/ ١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في ك/ الرقاق (١١/ ٣٥٢) مع الفتح

ومسلم في ك/ الإيمان، باب: الذي لا يقبل الله فيه الإيمان (٢/ ١٩٤) مع شرح النووي.

والدجال، ودابة الأرض"[١]

أما تمثيل الرسول للآيات بثلاث هي طلوع الشمس من مغربها والدجال والدابة، وفي رواية أخرى بطلوع الشمس من مغربها فقط، لا يدل على حصر الآيات في ثلاث كما هو في الرواية الأولى، ولا في واحدة كما هو في الرواية الثانية وفي الوجه الذي رجحه الطبري والألوسي.

ومَثَلُ هاتين الروايتين كمَثَلِ حديث: (إن لله تسعة وتسعين اسما)[٢]، فهو يثبت تسعة وتسعين اسما، لكنه لا ينفي أن يكون له أكثر من هذا العدد.

وغاية ما في أحاديث الباب إثبات أن هذه الأشراط الثلاث من بعض آيات الله، ولا يمتنع دخول غيرها في مدلوها. فيكون هذا من قبيل تفسير القرآن بالسنة الصحيحة، وأما الاختلاف الواقع في الروايات من أن بعضها ذكر آية واحدة وبعضها الآخر ذكر آيتين اثنتين، فهو من باب تفسير العام بذكر بعض أفراده، وفي مثل هذا يقول ابن تيمية في أصناف اختلاف التنوع: (أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه. مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى لفظ الخبز، فأري رغيفا وقيل له: هذا. فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده)[٣]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة (٢/ ٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري، في ك/ الشروط، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار، برقم (٢٥٨٢)

(٣) ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير (١٤)، بيروت، دار مكتبة الحياة، ط ١٩٨٠م.

وهكذا فعل الرسول فذكر مرة مثالاً واحد فقط هو طلوع الشمس من مغربها، وذكر في حديث آخر ثلاثة أمثلة من الآيات هي الشمس والدجال والدابة.

تنبيه:

قال رشيد رضا: (هذا وإن أبا هريرة -رضي الله عنه- لم يصرح في هذه الأحاديث بالسماع من النبي -صلى الله عليه وسلم- فيخشى أن يكون قد روى بعضها عن كعب الأحبار وأمثاله فتكون مرسلة. ولكن مجموع الروايات عنه وعن غيره تثبت هذه الآية بالجملة فننظمها في سلك المتشابهات، ويحمل التعارض بين الروايات وما في بعضها من مخالفة الأدلة القطعية على ما أشرنا إليه من الأسباب، كالرواية عن مثل كعب الأحبار من رواة الإسرائيليات والله أعلم)(١)

قلت: وهذا الكلام من الشيخ رشيد رضا فيه نظر كبير.

أولاً: قوله: (لم يصرح بالسماع)، قلت: من أين للشيخ رشيد رضا أن أبا هريرة لم يسمع، وهل يشترط في كون الكلام مسموعاً، أن يقول الراوي:(سمعت من فلان)، أو يقول الصحابي: سمعت من رسول الله كذا وكذا.

ثانياً: قول الصحابي: (عن رسول الله) لا يضر الرواية من قريب ولا بعيد؛ فالعنعنة في الرواية تعاب إذا كانت من مدلس ممن هم دون حلقة

(١) رشيد رضا، تفسير المنار (٨/ ١٨٦).

الصحابة، والمحدثون يقبلون العنعنة من كل الرواة الذين لم يعرف عنهم التدليس ممن هم في غير طبقة الصحابة، فكيف بالصحابة الذين اتفق المحدثون على عدالتهم وثقتهم.

أضف إلى ذلك أنه ما من رواية في حديثي الباب جاءت بصيغة عن، إلا وجاءت بصيغة: (قال رسول الله) في روايات وطرق أخرى.

ثالثاً: قوله: (فيخشى أن يكون قد روى بعضها عن كعب الأحبار وأمثاله فتكون مرسلة)، أقول: نحن نجل أبا هريرة -رضي الله تعالى- عنه عن مثل هذه الشبهة، فإنه لا يمكن أن يأخذ كلاماً من كعب الأحبار ثم ينسبه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بل لو فعل ذلك ـ رضي الله تعالى- عنه ـ لكان هذا مطعناً في كل الروايات التي رواها عن رسول الله في هذا المقام وغيره من المقامات.

رابعاً: أما الإشكال الذي أورده على الرواية الثانية، وهي: (ثلاث إذا خرجن)، فقال: (وهو مشكل مخالف للأحاديث الأخرى الواردة في نزول المسيح الدجال وإيمان الناس به)[1].

فهذا الحديث يدل على عدم الإيمان بعد خروج الدجال، والجواب عن هذا الإشكال ما يأتي:

أولاً: أن الحديث صحيح لا شك في صحته، فقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، والترمذي، وأبو يعلى، وغيرهم من المحدثين بروايات

(١) رشيد رضا، تفسير المنار (٨/ ١٨٦).

لا مطعن فيها ولا نقد.

ثانياً: ذكر العلماء في حل الإشكال في هذا الحديث وجوهاً عدة، والذي أراه صحيحاً في الجواب عنه وجهان:

الأول: أن يكون انقطاع التوبة وعدم قبولها باجتماع العلامات الثلاث الواردة في الحديث، بمعنى أنها إذا تم خروجها جميعاً انقطعت التوبة، ولا تنقطع التوبة بظهور إحدى الثلاث دون الأخريين. وهذا هو رأي القاري[1]، والمباركفوري[2].

والثاني: أن يكون طلوع الشمس من مغربها هو آخر العلامات خروجاً، فإذا طلعت الشمس، انقطعت التوبة[3]، وبالنظر إلى الروايات الواردة في هذا المقام لم أجد رواية واحدة تعكر على هذين الوجهين من الجمع. وبأي الوجهين قلنا زال الإشكال ولله الحمد.

وعليه فلا وجه لما قاله الشيخ رشيد في الطعن بهذا الحديث الصحيح، ولكن سامح الله الشيخ رشيداً على هذا المنهج الذي سلكه كثيراً في تفسيره، فكان الأولى به ألا يصف الأحاديث الصحيحة بالتعارض والتناقض، فالقاعدة أنه لا يمكن لحديثين صحيحين سندا ومتنا أن يتعارضا، بل التعارض يأتي أحياناً في فهم السامع لهما، لا في أصلهما، وإن كنا نحيل التعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول، فإحالته بين صحيحي

(١) القاري، مرقاة المفاتيح، (٨/ ٣٥٤١)، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

(٢) المباركفوري، تحفة الأحوذي (٦/ ٤٠٦) محمد عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية

(٣) القاسمي: محاسن التأويل (٤/ ٥٤٥).

المنقول أولى وأحرى.

العلة في عدم قبول الإيمان:

العلة في عدم قبول الإيمان أن هذه الآية يراها كل أهل ذلك الزمان، فتنكشف لهم الحقائق، ويشاهدون الغيب مشاهدة الحاضر، فهم في ذلك كمثل الذين رأوا عذاب الله -تعالى- عياناً كما في قوله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [٨٥، غافر] وكمثل الذي يحضره الموت؛ فلذلك لا يقبل الله -تعالى- توبة العبد عند الغرغرة، قال -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾[المؤمنون: ٩٩]، قال القرطبي: (قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسا إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته، كما لا تقبل توبة من حضره الموت. قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١] أي: تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار، فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله. وعلى هذا ينبغي أن تكون

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ١٣٢).

توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش، لأن علمه بالله -تعالى- وبنبيه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وبوعده قد صار ضرورة)[1]

والظاهر من لفظ الآية أن الله -تعالى- لا يقبل العمل من الكافرين والمؤمنين على حد سواء، ولذلك قال الله -تعالى-: ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ بعد أن قال: ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا ﴾، فهذا الاحتراز دل على من كان عنده إيمان سابق، ويوضحه الحديث الوارد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت، طبع على كل قلب بما فيه، وكفي الناس العمل)[2]

قال الزمخشري: (والمعنى أن أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة، ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفسا غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيرا، فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيرا)[3]

وقال الألوسي: (إنه إذا شوهد تغير العالم العلوي يحصل العلم

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٤٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، (٣/ ١٣٣-١٣٤) برقم (١٦٧١)، وقال محققه أحمد شاكر: (إسناده صحيح)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (رجال أحمد ثقات)، انظر: مجمع الزوائد (٥/ ٢٥١).

(٣) الزمخشري، الكشاف (٢/ ٨٢).

الضروري، ويرتفع الإيمان بالغيب، وهو المكلف به، فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند الغرغرة)[١].

وقد اختلف المفسرون في قبول التوبة ممن لم يعاين ذلك ممن جاء بعد من الناس الذين امتد بهم الزمان، ونسوا ذلك، فهل ينطبق عليهم حكم الذين شاهدوا وعاينوا.

فذهب القرطبي إلى قبول الإيمان والتوبة منهم، ولعله نظر -رحمه الله تعالى- إلى العلة، فلما زالت زال الحكم[٢]، وذهب إلى عدم قبولها الطبري؛ وحجته في ذلك أن الأدلة لم تفرق بين من شاهد ومن لم يشاهد [٣]

(١) روح المعاني (٤/ ٣٠٥).
٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤٥).
٣) الطبري، جامع البيان (١٢/ ٢٥٨).

المبحث السادس: خروج الدابة

ومن أشراط الساعة التي اختلفت كلمة المفسرين في تحقق دلالة القرآن الكريم عليها، خروج الدابة، ومدار الأمر في ذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]. فقد بين الله -تعالى- أن الناس إذا فسدوا وتركوا دينه، أخرج لهم دابة من الأرض تكلمهم على ذلك، وسيأتي معنى الكلام في موضعه بإذن الله -تعالى-.

وقد اختلف المفسرون في كون هذه الآية تدل على شرط من أشراط الساعة تبعاً لخلافهم في معنى الدابة، وكانت أقوالهم على النحو الآتي:

القول الأول: أن الدابة هي الجساسة التي ذكرت في حديث الدجال كما في قصة تميم الداري - رضي الله عنه -.(١)

وممن ذهب إلى هذا القول الزمخشري(٢) وأبو السعود، قال أبو السعود: (وهي الجساسة، وفي التعبير عنها باسم الجنس، وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمي من الدلالة على غرابة شأنها، وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى)(٣)

القول الثاني: أنها فصيل ناقة صالح -عليه السلام-، وقد صحح هذا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في ك/ الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر ابن صياد (١٨/ ٧٨)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٣/ ٣٨٤).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٦/ ٣٠١).

القول القرطبي، واستدل عليه برواية: (لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام) [١]، فقوله: (ترغو) يدل على ذلك؛ لأن الرغاء يكون للإبل، كما استحسن رحمه الله -تعالى- قول الناظم:

واذكر خروج فصيل ناقة صالح ** يسم الورى بالكفر والإيمان

القول الثالث: أن الدابة هي إنسان قد آتاه الله -تعالى- من الحجة والبرهان ما يحاجج به الناس ويناظر أهل البدع والزيغ حتى ينقطعوا، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي بينة، واشتهر هذا القول عن الشيعة، ويقصدون به علياً -رضي الله عنه-[٢]

القول الرابع: الدابة اسم جنس لكل ما يدب، وليست ذلك الحيوان، وقد يكون المراد منها تلك الجراثيم الخطيرة التي تفتك بالإنسان وجسمه، فهي تجرح وتقتل، وهذا الجرح وذلك القتل هو أكبر عظة للإنسان لو كانوا يتعظون، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال، وهذا هو رأي محقق كتاب النهاية لابن كثير يدعى أبا عبية [٣].

مناقشة هذه الأقوال:

أما القول الأول فهو غير صحيح؛ لأنه ليس في الآية ولا في

(١) تفسير القرطبي، والحديث أخرجه الطيالسي- (٢/ ٢٢٠-٢٢١)، والحاكم في المستدرك بألفاظ أخرى(٤/ ٤٨٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وهو أبين حديث في ذكر الدابة، ولم يخرجاه.

(٢)الألوسي، روح المعاني (١٠/ ٢٣٣).

(٣) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، تحقيق: محمد فهيم أبي عبية (١٩٠-١٩١).

الأحاديث الواردة في شأن الدابتين ما يدل على أنها الجساسة، ومطلق الاشتراك في مسمى الدابة لا يدل على ذلك.

وأما القول الثاني بأنها فصيل ناقة صالح، ففيه نظر من وجوه:

أولها: أن الحديث الوارد في ذلك غير صحيح، ففيه طلحة بن عمرو الحضرمي، وقد ضعفه ابن معين، وأحمد، وقال الهيثمي: (متروك) [(١)].

ثانيها: سلمنا صحة الحديث ـ وهو غير صحيح ـ إلا أننا نمنع صحة الاستدلال به على أن الدابة هي ناقة، بدليل (ترغو)؛ وذلك لوجود روايات أخرى فيها (تدنو)، و(تربو).

ثالثها: سلمنا أنها ناقة، إلا أننا نمنع أن تكون هذه الناقة هي خصوص فصيل ناقة صالح -عليه السلام-؛ فالدليل هنا محموله أعم من أن تكون الناقة هي ناقة صالح أو غير ناقة صالح، ولذلك فالدليل هنا لا ينتج المدلول، وبهذا نبطل صحة هذا القول.

وأما القول الثالث بأن الدابة هي علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، فما أقبحه من قول وما أفسده من رأي، فكيف يستقيم في عقل عاقل أو فهم فهيم أن يوصف الصحابي الجليل التقي النقي المبشر بالجنة بمثل هذا الوصف؛ من أجل إثبات عقيدة (الرجعة)، فإننا والله ننزه آحاد المسلمين، بل العصاة منهم، عن مثل هذا الوصف، فكيف بمن هو زوج بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورابع الخلفاء الراشدين. قال الألوسي: (وكل ما

(١) مجمع الزوائد: (٥/ ١٠٤)، بيروت، دار الفكر، ط ١٤١٢هـ.

يروونه في ذلك كذب صريح)[١].

وأما القول الرابع من أن الدابة هي الجراثيم والبكتيريا فهو غير صحيح لما يأتي:

أولاً: الجراثيم والبكتيريا في الغالب لا ترى بالعين المجردة، ولم يقل أحد بأن هذه الدابة لا ترى.

ثانياً: أن الجراثيم والبكتيريا والأمراض الفتاكة موجودة من القديم، وأما هذه الدابة فلم تخرج بعد، بل هي من أشراط الساعة الكبرى.

ثالثاً: أن هذه الدابة لها عمل معين، وهو وسم الناس بالكفر والإيمان، أما هذه الجراثيم فلا دخل لها في ذلك من قريب أو بعيد.

رابعاً: أن مأخذ هذا القول ومبناه على تلك الفكرة التي خرجت وانتشرت في العصر الحديث من محاولة تفسير جميع الغيبيات بالأمور المشاهدة أو القضايا العلمية، كأولئك الذين فسروا الملائكة والجن بالميكروبات وفسروا المعجزات بالنظريات العلمية ونحو ذلك.

وفي نظري أن هذا الفكر هو فكر انهزامي ظهر محاكاة للأفكار اللادينية التي تنادي وتؤمن بالطبيعة، وتنكر كل ما وراء الطبيعة، إلى جانب تلك النظرة التي تدعو إلى تقليص مادة الاستدلال الديني، كأولئك الذين ينكرون الاستدلال بالسنة والذين يسمون: (القرآنيين)، والقرآن منهم براء، وأولئك الذين لا يستدلون من السنة إلا بأقل القليل منها، في خطة

(١) الألوسي، روح المعاني (١٠/ ٢٣٣).

تآمرية تكاملية من أعداء هذا الدين، على تقليص النصوص المقدسة، ثم إتاحة المجال للعقول في التحريم والتحليل، على النحو الذي تشاء والمنهج الذي تريد، بحجة العقل والنظر والتدبر والتفكر.

وبهذه المناقشة يظهر ضعف جميع الأقوال المتقدمة؛ لأنها لا تقوم على ساق الاستدلال القويم، ولا على ميزان الاستنباط السليم. وبهذا لا يبقى من الأقوال صحيحا إلا القول الخامس، وهو:

القول الخامس: أن هذه الدابة هي دابة من دواب الأرض، على معنى اللفظ العربي، الذي يفهمه كل عربي، وليست من نوع الإنسان، بل هي دابة من الأرض لها صفات تختلف بها عن غيرها من الدواب الأخرى، تكلم الناس، وتسمهم، فتكون بذلك خارقة للعادة، معجزة من معجزات الله -تعالى- في خلقه، وشرطاً من أشراط الساعة.

وهذا ما وردت به الأحاديث الصحاح، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أنه قال: (حفظت من رسول الله حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله يقول: (إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريباً)[(١)]

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعاً: (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في ك/ الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال، (١٨/ ٧٧-٧٨) مع شرح النووي.

من مغربها، والدجال، ودابة الأرض) (١)

وقد اختلف المفسرون في معنى التكليم الذي نطقت به الآية الكريمة على قولين(٢):

الأول: تكلمهم من الكلام، الذي هو النطق والمخاطبة.

الثاني: تكلمهم، من الكلم، أي: الجرح، بمعنى الوسم.

والذي يظهر أن لفظ الآية يحتمل المعنيين كليهما، وأنها تفعل كلا الأمرين، وهو قول ابن عباس -رضي الله عنهما-، ورجحه ابن كثير، إلا أن التكليم من الكلام أشيع في اللغة من التكليم بمعنى الجرح.

وأما بالنسبة لماهية الكلام الذي تخاطبهم فيه، فقد اختلف في ماهيته تبعاً لاختلاف القراءة في قوله -تعالى-: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾، فمن قرأها بكسر همزة (إن)(٣)، جعل الكلام هو خصوص قولها: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ ، بناء على أن الكلام قول، والهمزة بعد القول تأتي مكسورة. ومن قرأها بالفتح(٤) جعل الكلام عاماً، ولم يخصصه بما ذكر في

---

(١) المصدر السابق، كتاب: الإيمان، باب: الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان، (٢/ ١٩٥).

(٢) الشوكاني: فتح القدير (٤/ ١٧٥).

(٣) هذه قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر. انظر: الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر (ص٤٣٢)، لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ. وابن خالويه، الحجة في القراءات السبع (٢٧٥)، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، بيروت، دار الشروق، ط ٤، ١٤٠١هـ.

(٤) عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف، الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر (ص٤٣٢)، وابن خالويه، الحجة في القراءات السبع (٢٧٥).

الآية الكريمة، ولنا أن نجعل قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ استئنافا ابتدائيا، بمعنى عدم إيمان الناس في ذلك الموقف.

والذي يظهر والله أعلم عدم امتناع تكليمها إياهم بما ذكرته الآية وبما عداه من عموم الكلام، وهذه إحدى فوائد تعدد القراءة في الكلمة، فتدل كل قراءة منها على غير ما تدل عليه الثانية، في وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، يدل على ثراء القراءات القرآنية وتنوع دلالاتها.

تنبيه:

بقي من أشراط الساعة الكبرى الخسوفات الثلاث وخروج المهدي، ولم أفرد لها مبحثاً؛ لأني لم أجد –حسب بحثي– اختلافا وجيها بين المفسرين في التدليل على هذين الشرطين من آي الذكر الحكيم، فاقتصرت على ما ذكرت من الأشراط، والله أعلم.



الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

ففي نهاية هذه الدراسة أصل إلى الخاتمة لأسجل النتائج الآتية، والله الموفق.

ـ يدور معنى (شرط) إلى العلامة، و(الساعة) إلى الجزء من الزمان، وعليه فإن أشراط الساعة هي العلامات التي يعقبها قيام الساعة.

ـ تنقسم أشراط الساعة إلى أقسام عدة باعتبارات مختلفة، ومنها اعتبار عِظمها وقدرها، واعتبار ظهورها، وأشهر ذلك انقسامها إلى صغرى: هي التي تتقدم الساعة بأزمان طويلة، وكبرى: هي التي تقارب قيام الساعة.

ـ اختلفت نظرة الكتاب والباحثين قديما وحديثاً في إثبات قضية أشراط الساعة، وخاصة الكبرى منها؛ وذلك تبعاً لاختلاف مللهم أو نحلهم أو مذاهبهم.

ـ انقسم المثبتون لأشراط الساعة الكبرى إلى قسمين: أولهما: الذين يثبتون الأشراط بالكتاب والسنة، وثانيهما: الذين يقتصرون في إثباتها على السنة فقط، دون أن يكون لها ذكر في القرآن أبدا.

ـ ذهب بعض الكتاب إلى تأويل كل ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة من أشراط الساعة الكبرى بالقضايا العلمية والنظريات الطبيعية، في محاولة لتجريدها من مضمونها الحقيقي وقداستها الأصيلة.

ـ الصحيح أن إثبات أشراط الساعة الكبرى ليس قاصرًا على ما ورد

في السنة النبوية فحسب، بل إن كثيرا من الأشراط ثبتت بنص القرآن الكريم، إما تصريحا أو تلميحا.

ـ اختلف المفسرون في دلالة القرآن الكريم على خروج المسيح الدجال في آخر الزمان، والراجح أن القرآن الكريم دل على ذلك تلميحاً ولم يصرح، وهو قوله -تعالى-: (يوم يأتي بعض آيات ربك)، وقد عرف بتفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيانه.

ـ نزول عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان ثبت في القرآن الكريم، وذلك في آيتين: الأولى قوله -تعالى-: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، وقوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١].

ـ لا يوجد دليل واحد صحيح مع الذين يقولون: إن يأجوج ومأجوج هم التتار أو غيرهم من الذين خرجوا قبل هذا الزمان، بل الصحيح أن خروجهم سيكون في آخر الزمان وهو شرط من أشراط الساعة الكبرى التي لم تظهر بعد.

ـ لم يحدد القرآن الكريم وقت خروج يأجوج ومأجوج، بل غاية ما دل عليه القرآن الكريم هو إثبات الخروج، وجاء التفصيل في السنة النبوية الصحيحة.

ـ اختلف المفسرون في الدخان المذكور في قوله -تعالى-: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[الدخان: ١٠]، والظاهر أنه الدخان الذي يكون في آخر الزمان وأنه ما نص النبي -صلى الله عليه وسلم- على أنه شرط من

أشراط الساعة الكبرى.

ـ ثبتت علامة طلوع الشمس من المغرب في قوله -تعالى-: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وذلك بتفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذه الآيات.

ـ اختلف المفسرون والعلماء في معنى الدابة التي وردت في قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٨٢]، أهي دابة حقيقية أم هي رمز لشيء معين غير الدابة، والصحيح أنها دابة حقيقية كما أخبر الله -تعالى- بذلك.

ـ من أبشع ما قيل في معنى الدابة أنها -حاشاه وكلا- علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وهذا قول ظاهر الفساد والنكران.

ـ تأويل معنى الدابة بالجراثيم والميكروبات هو قول باطل، ويعد إحدى المحاولات المعاصرة لتمييع النص القرآني، وتحريف القضايا الغيبية إلى الماديات البحتة في محاولة زائفة لإقناع الماديين بمفهومات النصوص الدينية المقدسة عند المسلمين، بما نسميه انهزامية مقيتة التي استحوذت على نفوس بعض المنبهرين بحضارة الآخر وعلومه.



المراجع

- إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي، لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ.
- إرشاد العقل السليم، أبو السعود العمادي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ط ١٤١٥هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، بيروت، دار الفكر.
- البحر المحيط في تفسير القرآن العظيم، أبو حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، ط١٤٢٠هـ.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبي الفضل، نشره: دار إحياء الكتب العربية، وصورته دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٧٦هـ.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري: محمد عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ط.
- التحرير والتنوير، بيروت، ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، تحقيق الصادق محمد إبراهيم، الرياض، دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٥هـ.
- تفسير ابن أبي حاتم، الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، صيدا، المكتبة

- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي سلامة، الرياض، دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ.
- تفسير المنار، رشيد رضا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١٩٩٠م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
- الجامع الصحيح. الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ٢٠٠٤.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
- الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، بيروت، دار الشروق، ط ٤، ١٤٠١هـ.
- حياة الحيوان الكبرى، الدميري، محمد بن موسى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ
- سنن أبي داوود. أبو داوود، سليمان بن الأشعث. تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، د.ت.
- صحيح البخاري، القاهرة، دار الشعب، ط ١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي. د. ط.
- روح المعاني، الألوسي:، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١٤١٥هـ.

ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، بيروت، دار المعرفة، ط١٣٧٩هـ.

ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. الشوكاني، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط ١، ١٤١٤هـ.

ـ في ظلال القرآن، سيد قطب:. القاهرة، دار الشروق، د. ط.

ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١٤٠٧هـ.

ـ اللباب في علوم الكتاب. ابن عادل، عمر بن علي. تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٤١٩،١هـ، ١٩٩٨م.

ـ لسان العرب، ابن منظور، بيروت، دار صادر، ط١.

ـ مجمع الزوائد، الهيثمي، بيروت، دار الفكر، ط ١٤١٢هـ.

ـ محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ.

ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، تحقيق: محي الدين ديب مستو، بيروت، دار الكلم الطيب، ط ١، ١٤١٩هـ.

ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، القاري: علي بن سلطان، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

ـ المستدرك على الصحيحين، الحاكم: محمد بن عبد الله، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ.

ـ المسند. ابن حنبل، أحمد بن محمد. تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري،

بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.
- مسند الطيالسي، الطيالسي: سليمان بن داود، تحقيق: محمد عبد المحسن التركي، مصر، دار هجر، ط ١، ١٤١٩هـ.
- مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان، دمشق، دار الكتب الشامية، ط ١٤١٢هـ.
- مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق: هلموت ريتر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، د. ت.
- مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، بيروت، دار مكتبة الحياة، ط ١٩٨٠م
- المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي:، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، بيروت، المكتبة العلمية، ط١٣٩٩هـ.
- النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير، تحقيق: محمد فهيم أبي عبية.